فصل من رواية:

نهاية رجل شجاع

حنا مينه

في أحد أيّام الصيف، وكان عمري ١٢ عاماً، قطعت بسكّين حادّة كنت أحملها دائماً، ذنب حمار أحد الجيران في ضيعتي «الخراب» انتقاماً من صاحبه الذي شكاني إلى والدي، بسبب ما كنت أقوم به، مع عصبة فاسدة من أولاد القرى المجاورة، من اعتداء على أملاك الناس، وسرقتها، وإتلافها أحياناً.

كانت فعلتي هذه شائنة حقاً، وقد تألم الحيوان، والتقط صاحبه عبّود ذنب الحمار، وحمله وهو يقطر دماً وذهب باكياً شاكياً إلى والدي، يطالبه بثمن الحمار الذي أتلفه دونما نظر إلى العواقب.

كان عبّود، وهو رجل عجوز، لا يملك سوى هذا الحمار، يركبه في نزوله إلى بانياس، ويحمل عليه بعض نتاجه من الخضار، فيبيعها ويشتري بثمنها بعض حاجياته. وحين يتعب، في الذهاب أو الإياب، يركب عليه مسافة ما، يستريح خلالها من المشي. وقد حسب أن حماره سيموت بعد قطع ذنبه، لكن الجيران، وأهل الضيعة الذين تجمّعوا، أقنعوه أن الحمار لن يموت، وأن الحيوان يمكن أن يفقد ذنبه ويعيش سالماً، وضربوا مثلاً بالأفعى، فهي تعيش بلا ذنب إذا قطع، بل إن ذنبها يفرع من جديد، وقد يفرع ذنب حماره، وما عليه إلا الصبر، فالفاعل ولد طائش، وسيتكفل والده بتأديبه.

وفعلاً تكفّل الوالد بتأديبي. كانت طريقته المفضّلة هي ربطي بالحبال، وإحكام وثاقي، وضربي بقشاطه العسكري حتى يغمى عليّ، ولا يحلّ عني حتى تتدخّل أمي، ويتدخّل الجيران، ويكفلوني عنده، ويحلون وثاقي، فتأخذني أمي بعيداً، إلى طرف الحقل أو إحدى زوايا البيت، وتشرع المسكينة بنصحي، وملاطفتي، ومساءلتي عن السبب الذي جعلني أرتكب فعلتي التي لا يرضى بها الله، وسيعاقبني إذا ما استمررت بفعل مثلها، ثم تسقيني وتطعمني، وتأخذني إلى الفراش الذي أنام عليه وأنا مدمّى، مهدود الحيل، فاقد القدرة على الحركة، حتى أن أمي كانت تخاف أن أموت لشدّة الضرب الذي تحمّلته كبغل في كل تأديبة.

في اليوم التالي حين ذهب والدي للعمل في الحقل، أيقظتني أمي وسألتني عن حالي، وداوت الجراح والكدمات التي في رأسي وجسمي، وأتتني برغيف وحبّات من الزيتون. ولأن حالي كانت سيّئة، فقد سلقت لي بيضة، كتعويض عما لحقني، ثم كلمتني بهدوء، بلطف، بحنان الأم قائلة:

- لماذا يا مفيد فعلت ما فعلت؟
- وماذا فعلت؟
- قطعت ذنب الحمار. . ألا تخاف الله؟
- أنا لم أقْطَعَهُ.
- من قطعه إذن؟ كل الأولاد شهدوا أنك أنت الذي قطعته.
- الحق ليس عليّ.
- على من إذن؟
- على ذنب الحمار. .

ـ كيف على ذنب الحمار؟
ـ لأنه كان ذنباً طويلاً، وفي نهايته باقة من الشعر.
ـ وهل هذه حجّة؟ ماذا تصنع بالذنب حتى لو كان طويلاً كما تقول؟
ـ أستخدمه بعد أن يجف ككرباج، أو كشّ بطرفه المشعر الذباب.
ـ وهل رأيت أحداً يصنع من ذيل حمار كرباجاً؟
ـ وممّ يصنعون الكرباج إذن؟
ـ وما أدراني؟
ـ أنا أدري . . بعد ذبح الثور يأخذون ذلك الشيء منه، ويضعون عليه ملحاً حتى يجف ويتقدّد . . في المرة القادمة . .

قاطعتني والدتي صائحة:
ـ يا ويلي، حذار، لا تفعلها مع الثيران . . أما كفاك الحمار . . ؟
ـ لكنني أريد كرباجاً . .
ـ ولماذا؟ هل تنوي أن تضرب به أحداً؟ خف الله يا ولدي، قم، حان وقت المدرسة.

قمت إلى المدرسة كما طلبت مني، لكنني وجدت ذنب الحمار قد سبقني إليها. عمل منه عبّود فضيحة. لم يترك بيتاً، أو سوقاً، أو قرية مجاورة، إلا دار فيها حاملاً ذنب حماره المقطوع والدم ينقط منه. كان حادثاً غير مألوف، فضيحة بجرس، ورغم جانب المصيبة التي أراد عبود أن يظهرها حزناً على ذنب حماره المقطوع، فقد كان الجانب الآخر، المضحك، يطغى أحياناً، فيضحك الناس، ويتناولون الذنب بأيديهم يتأملونه، ويتأسّفون على جماله، يعزّون عبّود في مصابه، وبعضهم، الذين تؤاتيهم النكتة، أو يركبهم الغباء، كانوا ينصحونه بأن يعيده إلى مكانه، أن يلصقه بمؤخرة الحمار، حتى أن الأستاذ شعبان، في محاولة لإظهار شطارته كمعلّم، اقترح على عبّود أن يأخذ الحمار إلى طبيب بيطري، لئلا يترك الجرح فيصاب الحمار بالغرغرينة ويموت فيخسر كل شيء.

المختار، من جهته، أخذ المسألة بجدية أكثر. وصف الحادثة بأنها فظيعة، تدلّ على روح إجرامية، وبأنها سابقة خطيرة: «اليوم ذنب الحمار، وغداً أذن بقرة، وبعد ذلك من يدري، ربما طعن أحد التلاميذ أو المعلّم شعبان نفسه، أو ربما استخدم السكّين لطعن أيّما شخص يقف في وجه شقاوته في القرية، أو ربما استعان بها في السطو والسرقة، أقلّه في تخويف الناس، لذلك يجب إخبار الدرك، وتحرير ضبط بالحادثة، وسوق الفاعل إلى المخفر، وإحالته إلى النيابة، حتى يضرب ويسجن ويعاقب العقوبة الرادعة».

على هذا النحو من الاستنفار العام، ترك الرجال أعمالهم واجتمعوا في بيت المختار، وأرسل المختار أحد رجاله لإحضار والدي، فلحقت به والدتي وهي تبكي، وقبضوا عليّ وقدّموني مع السكّين إلى مجلس المخترة، وبذلك اكتملت الفضيحة وتحوّلت إلى فاجعة، فاستدعاني المختار وصفعني صفعة قوية، قال والدي على أثرها:
ـ اضربْ يا مختارنا، أضرب بكل قوتك، لك اللحم ولك العظم، وحتى العظم لا أريده، تستطيع أن تشنقه على شجرة التوت أمام عيني جزاء فعلته الفظيعة.

وما أن سمعت أمّي كلمة الشنق، حتى صدّقت، فارتمت على قدمي المختار، وقبّلت ركبتيه متوسّلة، متضرّعة، باكية، حتى أشفق الجمع على حالها، وبعد أن أشبعوني ضرباً، بحضور المعلّم نفسه، الذي كان شعاره «العصا من الجنة» استقرّ الرأي على التريّث بإبلاغ الدرك، رحمة بإبراهيم المغضوب الذي هو والدي، والبكبوكة التي هي أمّي، وتعهّد عجوز صاحب تجارب من أهل الضيعة بمعالجة ذنب الحمار، حتى إذا شفي، دفع والدي غرامة الذنب المقطوع، أما إذا مات فعندئذ تفصل الحكومة في الموضوع.

من حسن حظّي أن الحمار لم يمت. عالج العجوز عقب الذنب النازف بالزيت المغلي، وبمرهم أعدّه من الأعشاب، وأخرج الحمار من مجلس المختار مُشيّعاً بالإشفاق والدعاء له بالصحة وطول العمر، وبقي الحمار الآخر، الذي هو أنا، مقيّد اليدين و الرجلين، مرميّاً في طرف باحة الدار، ريثما يتمّ الاتفاق على نوع العقوبة التي يجب إنزالها بي. وكانت هذه العقوبة معروفة، مسبوقة، وهي الفلقة، التي يتقنها رجال الدرك، وأزلام المختار، ولها شهرة في كل القرى والمخافر المجاورة.

أمسكني رجلان من يديّ، ألقى رجل ثالث بكل ثقله على بطني، ورفعوا رجلي وأنا في حالة استلقاء، وأدخلوا قضيباً ثخيناً في الحبل، بدل المرتينة(1) التي يستعملها الدرك، وجاءوا بحزمة من أغصان التوت والرّمان، وتبرّع المختار مشكوراً بخيزرانته، وقال رجل من الهيئة الاختيارية:

هذا الولد لن يتوب ويرجع عن شقاوته، إذا لم تتكسّر كل هذه الحزمة من الأغصان على قدميه.
وأضاف رجل آخر:

(1) البندقية.

ـ ليس المهمّ الضرب، بل شكله، إذا لم يُضرب ضرباً موجعاً فلا فائدة.

وقال ثالث:

ـ شرط الفلقة أن يتناثر اللحم وينفر الدم.

ولم يقل والدي شيئاً. كان قاسياً، غاضباً، يتحرّق لإنزال أقصى العقوبة فيّ، حتى لو متّ تحت الضرب. أما والدتي فلم تتحمّل المشهد. أخرجوها من البيت، وأغلقوا الباب دونها، وسدّوا آذانهم عن صيحاتها ورجاءاتها ودموعها، ومن مكانها على العتبة، خارج الباب، كانت تسمع ضربات الفلقة، وتستغيث ولا مُغيث.

انتهت حفلة التعذيب. أُقيمت الفلقة أمام جمع كبير من أهل الضيعة رجالاً ونساء وأطفالاً، وحين فكّوا وثاقي، بقيت ممدّداً على الأرض، راغباً عن النهوض أو الكلام والعودة إلى البيت، لكن المختار، الذي حسب أنه أدّبني بعمليّة الجلد، حسم الموضوع قائلاً:

ـ يا عبود اطمرْ ذنب الحمار واعتبر المسألة منتهية.

قال عبود الذي لعب بعقله بعضهم:

ـ كيف المسألة منتهية يا مختارنا؟

ـ وماذا تريد أكثر؟ الحمار عالجناه، والولد جلدناه، والأب اعتذر، فماذا تريد بعد هذا؟

قال رجل من الحاضرين، بينه وبين والدي عداوة:

ـ عبود يريد الدّية يا مختار.

صاح المختار ساخراً:

ـ هاي هاي.. عشنا وشفنا، حمار عبود كله لا يسوى متليكين(١)، وقد شفي، بعد أن انقطع الدم، ودُهن مكان القطع بالمرهم. يستطيع عبود من الآن أن يستخدمه كما كان يفعل سابقاً، كعادته تماماً، والعقوبة كانت رادعة وزيادة، فماذا تريدون أكثر؟ الدّية قال.. العمى، هل هذا قتيل؟ القتيل يذهب دمه هدراً، وقد ثأرنا للحمار، فلماذا تتفاصح يا غنوم؟ نصبت نفسك محامياً عن عبود، أم أنك تريد أن تنفخ في النار؟

قال غنوم:

ـ لا تزعل من الحق يا مختار.. الحمار أصيب بعطل وضرر، ولا بد من التعويض، هذا ما يريده عبّود.

ـ عبّود لم يقل شيئاً، ولا يريد شيئاً، ولم يعد له حق..

(١) المتليك: قطعة نقدية عثمانية صغيرة تافهة.

وليس هناك عطل أو ضرر، الحمار سليم معافى، واعْتبروا المسألة منتهية، حلّوا عنا.

قال عبّود تَنِحاً:

ـ حماري أصبح بلا ذنب، ولن أستطيع بيعه بعد الآن. أريد ثمن ذنب الحمار، ولن أُسقط حقّي، ولن أطمر ذنب الحمار وأعتبرَ المسألة منتهية.

قال المختار بنبرة تهكّم:

ـ علّق الذنب زينة في البيت.

ـ سأحمله إلى المخفر في بانياس، وأشتكي لرجال الدرك.

ـ وماذا يفعل لك الدرك؟ سيضحكون عليك.. ولد تشيطن وعاقبناه، فماذا في وسع الحكومة نفسها أن تفعل أكثر من هذا؟

ـ تأخذ لي حقّي.

ـ مرحباً حق.. لا تكنْ أهبل يا عبّود.. ولا تدع غنّوم يستفزّك.. أنت رجل عاقل، وغنّوم هذا شيطان، بينه وبين برهوم عداوة.. يريد أن ينتقم.. وبماذا؟ باستغلال ذنب حماره. دعه يخبّط بغير هذه المسلّة! المختار فعل ما عليه، والهيئة الاختيارية وافقت على ما فعله، واكتفت به، وأهل الضيعة شهدوا الفلقة، ثم يأتي غنّوم ويشعلها من جديد. كيف؟ قال ديّة يا سيدي.. وعن أيّ شيء؟ عن ذنب حمار.. ولكْ يا عبود، يا مخبول، قطعُ ذنب حمارك لا يستحقّ صفعة، ونحن ضربنا الولد فلقة.. وأخذت مسؤوليتها على عاتقي.. الفلقة ليست لعبة.. عملية الجلد تساوي الحمار كله، فلا تجعل من قطع ذنب حمارك قضية.. إيّاك والنزول إلى بانياس. هناك ستكون عرضة للسخرية.. أنت رجل كبير، وأنا أنصحك لوجه الله.. لا تتعب نفسك. مفيد ولد، ولو فعل فعلة أكبر من هذه لضربوه كفّيْن وصرفوه، ونحن فعلنا أكثر. لا تجعل من قطع ذنب حمارك قضية.. هيا.. مع السلامة، فَرْجُونا عرض أكتافكم، وأنت يا برهوم خذ ابنك وانصرف. أنا أدّبته لك، ربّيته إلى الأبد.

انتهت خطبة المختار الذي فيه قنفشة(١). رفض والدي أن ينظر إليّ، اعتبر فعلتي جريمة، قضية تمسّ شرف العائلة، وهكذا تركني في أرضي وانصرف. جاءت أمي فأجلستني، ثم نهضتُ بمساعدتها، وكنت عاجزاً عن الوقوف على قدمي، فأسندت عليها حتى وصلت إلى البيت، وهناك غسلتْ قدميّ بماء ساخن، ودعت على المختار بالموت، وشتمتْ غنّوم صاحب الفتن، وتأسفت للحادث، ولم تقل أيّ شيء بحق

(١) القنفشة: التشوف، حب التظاهر.

عبّود، ففي رأيها أنّ من حقه أن يقول عليّ ما يشاء، لأن ذنب الحمار لا يُعوّض، وهذا ما يجعل بيعه صعباً، وسعره أقل، لكن ما جرى قد جرى، والزيت إذا اندلق على التراب لا يُجمع ثانية، وباختصار فإن الله سيعاقب أولاد الحرام.

بعد أيام شُفيتُ. ونزولاً عند نصيحة الوالدة، التي بقيت خلال هذه المدة تعتني بي، وتصبّ على رأسي دلواً وراء دلوا من نصائحها، تحاملتُ على نفسي وذهبت إلى المدرسة. لم أكن أحسّ بأيّ ذنب، وكنت مقتنعاً أن الحق ليس عليّ، بل على ذنب الحمار، الذي كان طويلاً، طحينياً، وفي طرفه باقة من الشعر، ونتيجة لذلك فقد شعرت بالظلم، وتضاعفت رغبتي في الأذى، وفكرت بالانتقام، خاصة من غنّوم والمختار، وأجّلتُ كل ذلك حتى أكبر، وحين تحين الفرصة، ووجدت في نفسي القدرة، والرغبة في حرق بيت المختار، وحتى بيوت الضيعة كلها وبينها بيتنا.

كان والدي قد انتزع السكين مني، وهكذا أصبحت أعزل. لم أتوقف عند هذه النقطة. لم أتأسف على السكين، ففي وسعي الحصول على غيرها، بل لم أجد أني بحاجة إليها، فأنا، حتى في هذا العمر الذي كنت فيه، عندي من القوة والشجاعة ما يكفي لمقابلة أيّ كان، وحتى المختار نفسه. ولو جاء الدرك لما تمكّنوا من القبض عليّ، ووالدي لا يستطيع شيئاً، ولن أخضع أو أستسلم، ولن يكون في وسعه أن يربطني بعد الآن إلى التوتة أو الزيتونة، أما قشاطه العسكري الذي يجلدني به فقد قررت تقطيعه، أو إلقاءه في البئر، وباختصار، ملأتني الفلقة غضباً، فقرّرت، بيني وبين نفسي، أن أفرّ من البيت، وأن أقطع كل صلة لي بالعائلة والضيعة.

هكذا دفعوني في طريق الشقاوة. لا أنفي أنني كنت شقياً منذ ولادتي، لكن القصاص الذي أنزلوه بي، حوّل هذه الشقاوة إلى قصد، فرحت أبحث عن سبب للشجار، وللاعتداء، وعدت إلى المدرسة أحمل روحاً عدوانية، ودخلت الصف متجهّماً، تُنذر عينايَ بالشرّ، حتى لم يتجاسر أيّ من الأولاد أن يتحرّش بي، أو يقول كلمة حول موضوع ذنب الحمار.

لكن المعلّم شعبان، الذي شهد العقوبة التي نزلت بي عند المختار، كان يعدّ لي عقوبة من نوع آخر، كلاميّة هذه المرة. كان طويلاً، نحيلاً، يلبس طربوشاً يصل إلى ما فوق الحاجبين بقليل، ويبدو أشبه بشيء أحمر مدوّر لولا الشرّابة التي كان ينسى أحياناً أن يجعلها إلى وراء، لأنه لا يملك مرآة في البيت، أو لأنه يخرج على عجل فيضع الطربوش على رأسه كيفما اتفق. كان شيء ما في تكوينه، هيئته، بروز أنفه، يُغريني بالعبث به، خاصة إذا أطال نَكْش أنفه في الصف، وأنزل بي عقوبة، أو ضايقني بإخراجي للتّسميع، وراح يطمرني بالأسئلة والتقريعات بصوته الحادّ كصوت ذكر الاوزّ.

رأيت الشرّ في عينيه منذ دخل، تجاهلته. كنت أتجاهله كثيراً، لا متعمداً بل لأن الطبيعة التي تبدو من النافذة، كانت تشدّ انتباهي أكثر من الدرس، كان المطر، في الشتاء، يبعث في نفسي نشوة خاصة، غامرة، فأنا أراقبه، وأتمتع بنزوله من وراء النافذة، وحين أسمع وقعه على الزجاج أو الأرض كنت أطرب، راغباً في الخروج والسير تحته حتى أتبلل كلّي. وحين كان الرعد يقصف، وهو كثير عندنا في الشتاء، كنت أحسّ أن شيئاً ما يتفجّر ويلامس قلبي، ثم يلمع البرق، فأتمنّى مغادرة الصفّ والتخبّط في الماء والوحل، واللعب أو الرحيل مع المطر إلى حيث لا أدري. فإذا جاء الربيع، وتفتّح زهر اللوز، كان يفتنني ببياضه، فأقوم بملخ غصن أحمله معي إلى المدرسة أو البيت، ويضحك شيء ما في داخلي، لرؤية الشمس وزرقة السماء. باختصار كنت أحب الطبيعة في كل فصولها، حتى في فصل الخريف، حتى تصفرّ الأوراق وتتساقط، وتكون هناك بقايا من العنب والتين على الأشجار، وأنا أعمل في لقط الزيتون مع عائلتي، أو أذهب إلى المعصرة لمراقبة عمليّة عصر الزيتون، أو اصطياد العصافير والطيور وتخريب أعشاشها إنْ وجدت. باختصار كانت الحياة بالنسبة إليّ كذبة، وكانت كذبتها فرحة كبيرة، أو هكذا كان يخيّل إليّ. ولأنها فرحة فقد مازحتها طويلاً دون أن يخطر لي أن الوجه الآخر للمزح هو الجدّ، كما أن الوجه الآخر للحياة هو الموت. وما كنت لأكترث، حتى بالحياة أو الموت، لأنهما، ولوقت طويل جداً، ظلاّ خارج حساباتي. أقول حساباتي من باب التشبّه بالناس، فأنا أعلم، مما يقال حولي، أن لكل إنسان حساباته في هذه الدنيا، لكن غبائي، أو غفلتي، أو رعونتي، كلها مجتمعة، أو إحداها منفردة، وضيعتي، منذ وعيت الوجود، خارج هذا التفكير الذي يقال له حساب، أو عاقبة، أو خوف.

ذلك أنني ولدت كما يولد الناس جميعاً، من أب وأمّ، وكان لي أخوة وأخوات، غير أنني في طيشي، أو في جنون الولدنة، لم أعترف، يوماً، بسلطة أب، ولا عناني، كما يعني الحيوان نفسه، حنان الأم، أما الأخوة والأخوات فلم أشعر بوجودهم، ولم أعترف بهذا الوجود أصلاً، فهم، حتى في قرابتهم الشديدة، قرابة اللحم والدم. كانوا بشراً كغيرهم،

ولم أستشعر، حتى عندما كنت في حضن الأسرة، أنهم من أسرتي، بل إن أسرتي نفسها كانت شيئاً غير محدد، فالارتباط العائلي، كما هي حال الآخرين، كان مبتوتاً في حياتي، والبيت في قرية الخراب التي ولدت فيها، لم يكن أكثر من وكر، ألجأ إليه للنوم في الليل، أو طلباً للطعام حتى أجوع، أو حين أعجز عن تحصيل لقمتي بنفسي، أي من خلال الشيطنة، أو استغفال أي ولد أو امرأة أو رجل، تجمعني بهم الصدفة، كعمل عابر، أو رفقة طريق، أو شراكة القيام بمغامرة في الميناء، أو شوارع اللاذقية، أو الصيد في البر والبحر، أو عضوية غير شرفية لعصابة من الفتيان، تتألّف ارتجالاً، وتنفضّ ارتجالاً، أو تدوم لبعض الوقت، حين تقوم بمهاجمة عصابة من الفتيان في حيّ آخر، أو تنصاع لاقتراحاتي الكثيرة، في التوجّه إلى الريف، لاستباحة أيما كرم للعنب، أو مزرعة للبرتقال، أو حقل للأشجار المثمرة، أو إمساك الدجاج، أو التسكّع في بازار اللاذقية، لممارسة الشقاوة، كأن نضع حجراً في سلّة بيض يحملها فلاح، أو نربط شملتي قرويين بجلسان متجاورين، أو إلقاء سيكارة مشتعلة في جيب سترة تركماني ينزل المدينة للتسوّق، أو نشل بعض المحافظ وبعض النقود حين نكون جياعاً أو في حالة إفلاس تامّ.

كان والدي إبراهيم المغضوب، ويلقّبونه بالمنتوف، رجلاً ضخماً، له هيكل جمل، ورأس جدي الماعز، وله قوّة بغل حقيقيّ، وعنه ورثت ضخامة القامة، وقوّة الساعد، وما عدا ذلك فأنا أفترق عنه في كل شيء، في كبر الرأس، وقلّة الصبر، وعدم الاستقامة، وسخافة العقل، وقد أحبّ هو الأرض، وكان يعني بقطعة أرضه الصغيرة، فيزرعها في كلّ المواسم، وفي الخريف يشتغل عاملاً في معصرة للزيتون، في قرية قريبة، وكنت أنا، على خلافه تماماً، لا أطيق الأرض، أو القرية، أو المدرسة، أو البيت، وكثيراً ما أبكيت أمّي ربما الحنش، وكانوا يلقّبونها البكبوكة، وأشقيت عائلتي، وعبثت بمعلّمي في المدرسة، وهربت من صانع الأحذية، الذي أوكل إليه والدي أمر تعليمي المهنة، كما هربت من «الخراب» إلى اللاذقية، حيث كنت ألجأ إلى بعض أقربائي، فكان والدي يبحث عني عندهم، وفي كل مكان، من القرى المجاورة، أو البلديات القريبة، مثل بانياس وجبلة وطرطوس، وحين لا يقع لي على أثر، ينزل اللاذقية، فيجدني متشرّداً، أنام حيثما اتّفق، وأعمل أيّ عمل أربح منه قروشاً قليلة.

وأذكر أن والدي، من شدّة غضبه عليّ، وحنقه من تصرّفاتي الطائشة، كان يدعوني «الضارّ» مشقلباً، على هذا النحو، اسمي الحقيقي مفيد، وحين يقبض علي، ويعيدني تحت العصا إلى البيت، كان يصرخ في وجهي:

ـ يا عرص، يا ابن الكلب، يا ضارّ، يا وحش..

وكنت أقول له:

ـ أنت تسيء إلى سمعتي، وتقلب اسمي، وتصفني بالوحش، مع أن اسمي مفيد، وأريد أن أكون مفيداً، لكنني لا أستطيع، أو لا أعرف، علّمني كيف أكون مفيداً، حتى أستحقّ اسمي على الأقل.

وعندئذ تتدخل أمي وتقول له:

ـ الولد معذور يا إبراهيم.. لماذا تقلب اسمه؟ من أين جئت بكلمة «الضار» هذه؟

فيصيح بها:

ـ ضارّ لأنه ضارّ، وهل فيه غير المَضَرّة؟ أخطأت حين سجّلته باسم مفيد، هذا الكلب لا أثر للفائدة فيه، ولم يجلب لي سوى وجع الرأس، فماذا أفعل به؟

ولم يكن أبي ينتظر رأي أمي ليفعل بي ما يريد، أو ما يراه ضرورياً لتأديبي، كان يربطني إلى زيتونة، أو شجرة توت، وينزع زناره الجلدي، القشاط العسكري، وينهال به عليّ حتى يتعب، حتى يتصبّب عرقاً، حتى يتعضّل ساعده الأيمن، دون أن يفكر، أو يبالي، أين تقع الضربة. وبعد أن يشفي غليله، يدعني مربوطاً ويذهب ليستريح، ليشرب طاسة ماء تبلّ حلقه، وتروي عطشه، ويجلس على المصطبة في الصيف، وعلى الخوان داخل البيت في الشتاء، ويلف سيكارة ثخينة يدخنها بنهم، فإذا استراح، واستردّ أنفاسه، قام إليّ وعاود جلدي، وشتمني، وفعل مثل ذلك، في كل عملية تأديب، حتى تنهار قواه هو العملاق، فيدعني مربوطاً، ساعات طويلة، أو ليلة كاملة، منذراً كل من يتجاسر على فكّ وثاقي، بعقاب مماثل. لكن أمي كانت تجازف، وتتحمّل الضرب والشتم، وتأتي إليّ فتفكّ الحبل، وتأخذني من يدي بعيداً عن البيت، فنجلس معاً على صخرة، أو على التراب تحت شجرة، وتأخذ في ملاطفتي ونصحي:

ـ لماذا يا مفيد، يا ابني، تُعذّب والدك وتعذّبني على هذا الشكل؟

ـ أنا لا أعذب أحداً.

ـ كيف؟

ـ هكذا أنا لا أعذّب أحداً، أتصرّف بشكل طبيعيّ.

ـ هذه الشقاوة تصرّف طبيعي؟

ـ وكيف يكون التصرّف الطبيعي إذن؟

ـ أن تذهب إلى المدرسة، أو تتعلّم مهنة.

ـ أنا لا أطيق المدرسة.

ـ لماذا؟
ـ لأن المعلّم شعبان ينكش أنفه.
ـ وأنت ما دخلك في نكش أنفه؟
ـ أقرف منه.
ـ أنت تكذب..
ـ أنا لا أكذب، اسألوا الأولاد.
ـ لا ضرورة للسؤال، أنت تكذب.
ـ وهل أكذب إذا قلت إنه يلاحق نسوان الضيعة؟
ـ رأيته... بعينيك؟
ـ نعم!
ـ ولماذا لم يره سواك؟
ـ لأنهم لا يفهمون كما أفهم.. عيونهم مغمضة.

ـ أغمض عينيك أنت الآخر.. تظاهر كأنك لا ترى شيئاً.

ـ كيف لا أرى حين أكون أرى؟
ـ أنت تكذب يا ولد.
ـ وهل أكذب إذا قلت إنه يضربني.
ـ إذا حفظت دروسك لا يضربك.
ـ أنا غير قادر على حفظ دروسي!
ـ وكيف يحفظها أولاد الضيعة؟
ـ لا أعرف.
ـ أنت تكذب. أنت تتشيطن.
ـ ما أفعله ليس شيطنة.
ـ وما هو إذن؟
ـ تسلية!

ـ المشاغبة أثناء الدرس ليست تسلية.. أنت في مدرسة.. افهم يا مفيد! المدرسة لأجل الدراسة وليست للشغب أو التسلية.. المدرسة كي تتعلّم، والعلم ضروريّ، لأجل مستقبلك، تفكّ الحرف على الأقل.. هيّا انهض، تعال معي، قبّل يد والدك واعتذر منه.. غداً تذهب إلى المدرسة وتطلب السماح من المعلّم.. تعترف له بخطئك، وتظهر الندم، وتعلن التوبة، والله يقبل، وكذلك المعلّم، توبة التائبين.

ـ وبعد ذلك؟
ـ بعد ذلك تسلك سلوكاً جيداً، تهدأ، تترك الولدنة، تنتبه إلى ما يقوله المعلّم، وتستوعب كلامه، وتحفظ دروسك، وأنا كفيلة أن المعلم سيحبّك، ولن يعود إلى طردك، ولن تضطر إلى الهرب، كما أن والدك سيكون مسروراً منك، ولن يضربك، وسيعطيك «خرجيّتك»[1]، وهكذا ينصلح حالك. تصبح ولداً طيباً، وأصبح سعيدة بك.. أتفهم ما أقول؟ كن طيّباً لأجل خاطري، ولأجل مستقبلك، فكّر بمستقبلك يا مفيد، ضع عقلك في رأسك، اترك الشقاوة وأولاد السوء، نحن فقراء يا بني، فارحم فقرنا، ارحم عذابنا، أنت ابننا البكر، فكن مثلاً طيباً لإخوتك وأخواتك.. افعل ذلك لأجل خاطري، لأجل خاطر والدك، لأجل أن تكون نافعاً تنفع نفسك على الأقل.

كانت أمي طيّبة، كانت عنوان الطيبة، وكانت لطيفة، لم تتضربني أبداً، وحين تتحدّث إليّ أتقبّل حديثها بالرضى، وأتفهّمه، وأنوي أن أعمل به، فأنهض وأعود معها إلى البيت، وأحاول تقبيل يدي والدي فيرفض. يقول إنه لا خير فيّ، وأنه لا تنفع معي غير العصا، وبعد محاولات يرضى، فأذهب وأغسل وجهي، وأزيل آثار الدم عن ثيابي، وأتناول ما أجد من طعام، وأذهب فأنام، وفي الصباح تصحبني أمي إلى المدرسة، ويتكرّر مشهد الاعتذار، والتوبة، وأعود إلى الصف الثالث، الذي لم أترفّع منه أبداً.

أتساءل الآن: لماذا كنت أكره المدرسة؟ هل لأنها مدرسة قرية، في بيت من طين، وفي غرفتين متجاورتين، وأرضيّة ترابية، ونوافذ ضيّقة كالطاقات، يقتلنا البرد في الشتاء، والحرّ في الصيف، أم لأن المعلم ينكش أنفه طوال الوقت؟ لا أدري.. كل ما أذكره أن المعلم كان يرسلني من حين إلى حين لجمع الحطب، أو جلب الماء، أو قضاء حاجات له، ليس لها علاقة بالعلم والتعليم. أعترف. كنت غبياً، أو كنت أتغابى، فلا أحفظ ما في الكتاب، ولا أعي ما يقوله المعلم، ولا أكتب وظائفي، وأشاغب طوال الوقت، فإذا سألني المعلم سؤالاً، كنت أقطع عليه درسه، فأرميه بحبات الزيتون، أو حبات الزنزلخت، أو الحصى، عندما يدير ظهره إلينا ليكتب على اللوح الخشبي الأسود.

أذكر أن المعلّم كان يحفظنا الأبجدية، ويطلب منا كتابة حروفها، في أشكال مختلفة، وبعد أن اجتزنا هذه المرحلة، طلب أن نجعل الحروف كلمات، والكلمات جملاً، وأن نحفظ بعض الأناشيد وبعض القصائد، وأن نتعلم الحساب، وكنت لا أعرف ذلك كله، ولا أحفظ جدول الضرب، أو أجيد كتابة الكلمات، أو أقرأ ما في الكتاب.. والمعلم الذي حاول معي كل الطرق المفيدة، كان يكتشف أنها معي غير مفيدة، فيعمد إلى ضربي، ومعاقبتي وحبسي في

(١) مصروف الجيب.

المدرسة، وتقديم الشكاوي إلى والدي، دون أن يفلح أيّ من أساليبه هذه في جعل عقلي يتفتّح للفهم أو الحفظ أو القراءة، وعندئذ أهملني، وصار حضوري مثل غيابي، لا يكترث به، إنه كان يتمنّى غيابي، ليتخلّص من شقاوتي، ومضايقاتي، ومشاجراتي مع التلاميذ من مختلف الأعمار. لقد وهبني الله قوة كبيرة، وشجاعة لا يقف في وجهها شيء، فكنت أعتدي على زملائي بالضرب، بالشتم، وأفرض عليهم أن يجلبوا لي من بيوتهم التين والجوز والزبيب، ويجمعوا عنّي الحطب، أو يحضروا الماء، أو يشتركوا معي في السخرية من المعلم، أو تعذيبه بمختلف الوسائل، وإثارة الفوضى في الصفّ حين يخرج من القاعة، حتى بلغت بي الشقاوة حدّ تكسير المقاعد، وتمريغ اللوح الأسود بالطين.

كان المعلم، أحياناً، يخرجني من الصفّ، ويجعلني أقف أمام التلاميذ ويسألني، ما هو ناتج ضرب ستة في تسعة، فأصمت كأبكم، أو أحرن كحمار، أو أجيب على أسئلته بأجوبة تثير الضحك في الصفّ، وتحدث ضجّة يصعب عليه بعدها السيطرة على الموقف.

كان يسألني مثلاً:

ـ لماذا لم تكتب درسك؟

ـ لأن قلمي ضاع.

ـ وأين أضعته؟

ـ لا أدري.

أحياناً أعترف بأني كسرته، فإذا أعطاني قلماً أتحجج بفقدان الدفتر، فيسألني:

ـ أضعته أيضاً؟

ـ لا أدري من سرقه!

ـ سرقوه أم مزّقته؟

ـ سرقوه.

ـ لكن رفاقك يقولون إنك مزّقته.

ـ مزّقت الورقات التي لم أنجح في الكتابة عليها.

ـ ولماذا لم تنجح؟

ـ . . .

ـ ألم تتعلم كالتلاميذ الآخرين كيف تكتب الحروب والكلمات؟

ـ . . .

ـ لماذا لا تجيب. . ؟

ـ . . .

في مثل هذه الحال، وأمام صمتي المتعمّد، كان المعلم يستثار، فيذهب، في الغرفة ويجيء، ولكما أعطاني ظهره قمت بحركات تضحك الأولاد في الصف، أو نقفتهم بالحصى، أو عدت إلى مكاني دون أن يطلب مني ذلك، وعندئذ كان يثور، ويخرجني ثانية، ويضربني، ويشدّني من شعري الخشن، ويصيح في وجهي:

ـ يا كلب، ماذا أفعل فيك؟

ـ أرسلني لجمع الحطب.

ـ ولكنك تذهب ولا تعود.

ـ لأنني لا أجد حطباً يابساً، وأنت ترفض أغصان الزيتون، أو الأغصان الخضر، لأنها لا تشتعل.

ـ والماء؟ لماذا تكسر الجرار؟

ـ لأنها تنكسر عند مَلْئها.

ـ أنت شقيّ.

ـ نعم يا معلميّ.

ـ وأنت كلب.

ـ نعم يا معلّمي.

ـ وأنت حمار.

ـ نعم يا معلّمي.

ـ أتسخر مني؟

ـ أقول الحقيقة.

ـ الحقيقة أم الشيطنة؟

ـ لا أدري.

ـ كم هو حاصل ضرب أربعة في تسعة؟

ـ ٤٠

ـ وخمسة في ستة؟

ـ ٥٣.

ـ واثنين في اثنين؟

ـ ٤.

ـ برافو. . .

ـ هل كان جوابي صحيحاً يا معلّمي؟

ـ تستحق عليه الضرب حتى أفجّ لك رأسك.

ـ هذا أفضل من الحبس في المدرسة وقت الغداء.

ـ لكنني سأضربك وأحبسك معاً، سيكون القصاص مزدوجاً.

ـ كما تريد.

ـ أتهزأ.

ـ أقول الصحّ.

ـ ستنتبه وتحفظ كغيرك بعد اليوم؟

ـ أعدك بأن أفعل.

ـ ولكنك لا تفعل.

ـ هذا ما يريده الله.

ـ الله يريد منك أن تتعلّم.
ـ وأنا أتعلّم.
ـ أين ما تتعلّمه؟
ـ في رأسي.
ـ ولكن رأسك فارغ.
ـ هكذا خلقني الله.
ـ الله خلق للناس أدمغة في رؤوسهم.
ـ أنا حَرَمَني من الدماغ.
ـ أنت تكذب.. أسمعت ما أقول؟
ـ نعم سمعت، أنا أكذب.
ـ في رأسك دماغ كسائر الناس، لكن دماغك لا يشتغل.
ـ سأشغله.
ـ كيف؟
ـ علّمني أنت.
ـ تتواقح أيضاً..
ـ وماذا أقول إذن؟
ـ تعلّم تشغيل دماغك بنفسك.
ـ سأجرّب.
ـ ولكنك لا تفلح.
ـ أنا لا أفلح.
ـ أتسخر مني يا كلب؟
ـ العفو يا معلمي.. أصادق على كلامك فقط.
ـ ماذا أفعل بك..
ـ ...
ـ أضربك؟
ـ ...
ـ أحبسك؟
ـ ...
ـ أطردك من المدرسة.

ويثور المعلم من جديد:
ـ لماذا لا تجيب؟
ـ وبماذا أجيب؟

ـ بأيّ شيء، بأيّ كلام.. بأيّ وعد في أنك ستتخلّى عن سلوكك المعيب هذا، وتصبح إنساناً، تصبح مجتهداً، هل تسمع ما أقول؟ هل تفهم عليّ؟

ـ أسمع وأفهم يا معلّمي.
ـ سنرى
ـ نعم سنرى.
ـ أريد عملاً لا قولاً.
ـ سأعمل.. أعدك بأن أعمل.
ـ برهن لي عن ذلك.. احفظ جدول الضرب على الأقل.
ـ سأحفظه.
ـ متى؟
ـ حين يريد الله!
ـ وحين أريد أنا أيضاً، أتسمع؟ كلمة المعلم من كلمة الله.. يجب أن تطيعني كما تطيعه، وكما تطيع والديك.
ـ سأطيع الله وأطيعك وأطيع والديّ.
ـ وتحفظ دروسك؟
ـ سأحفظها.

ـ في هذه الحال سأكون سعيداً بك، وسيرضى عنك أهلك.
ـ سأعمل لإسعادك وإرضاء أهلي.
ـ هل هذا وعد؟
ـ وعد..
ـ وأمام التلاميذ؟
ـ أمام الجميع.

ـ في هذه الحال عد إلى مقعدك.. أحضر غداً قلماً ودفتر وحافظ على كتاب القراءة وكتاب الحساب.
ـ كتاب الحساب غير موجود.
ـ أين ذهبت به!؟
ـ سقط مني في البئر..
ـ كيف ذلك؟ ماذا جاء بالكتاب إلى البئر؟
ـ كنت أذاكر هناك.

ـ طيّب.. لا تذاكر قرب البئر بعد اليوم.. العمى انتهت الحصة وأنا مشغول بك.. تريد أن تجنّني..؟
ـ اشترِ كتاب الحساب من جديد.
ـ أخاف أن أطلب ذلك من والدي
ـ كان الله في عون والدك.

وبعد أن يتنهّد، ويزفر عدة مرات، ويفكر في كيفية إصلاحي، يصيح بنا:
ـ انصراف.

كانت هذه الكلمة أحبّ الكلمات لي. انصراف يعني ترك المدرسة، يعني الخروج من بين الجدران، والانطلاق حيث أشاء، دون كتب أو دفاتر أو أقلام، هذه التي كنت أرميها في البيت، أو أكلف أحد الأولاد بحملها إليه، فإذا سألوه أين مفيد، أجابهم، كما كنت أوصيه، سيأتي بعد قليل، وكان أبي

يعرف هذا القليل، فيتمتم، ويهمهم، ويهدّد ويتوعّد، وأمي تحاول تهدئته قائلة:

ـ سيأتي، لا تقلق عليه.

ويجيبها بعصبية:

ـ أنا أقلق عليه؟ ولماذا؟ أخاف أن يخطفوه، أن يضربوه، أن يموت، ليته يموت، كنت على الأقل أستريح.

وتنوح أمي:

ـ يا ويلي، تدعو عليه بالموت؟ أليس ابنك وفلذة كبدك؟ كيف يطاوعك قلبك فتدعو عليه بالموت؟

ـ أنا أدعو وأنا أعرف ما أقول.. ليته يموت هو، أو أموت أنا، في هذه الحال فقط ينتهي الأمر، وأتخلص من همّه.

ـ لو مات لبكيت عليه، وتأسّفت طول عمرك على فقده.

ـ لو مات لن أبكي عليه، ولن أتأسف.. يكفي ما تحمّلت من بلاء بسببه، يكفي عذابي، ويكفي ما أقاسي. ليمتْ. اسأل الله أن يموت، لأنه ولد لا نفع منه، ولن يجلب لي إلا المزيد من المتاعب.

تُبرطم أمّي:

ـ آه! ما أقسى قلبك، لم أسمع، في حياتي كلها، رجلاً يدعو على ابنه بالموت.

ـ اسمعي إذن، أنا أدعو عليه بالموت، هذا ليس ابني، أنا أتبرأ منه، إنه عاهر ابن عاهرة، هذا النغل، لا أريده في بيتي.

ـ كيف؟ أتطرده؟ تدفعه إلى التشرّد والضياع؟

ـ إنه يطرد نفسه، إنه متشرّد وضائع، هذا الولد لا خير فيه، قلت لك لا خير فيه، والأيام بيننا.

ـ كل هذه العصبية لأنه بعث بكتبه مع أحد رفاقه؟

ـ بل لأنه خائب، لأنه خاسر، لأنه سيذهب الآن إلى حيث لا يدري إلا الشيطان. وغداً تأتي الشكاوي بحقّه، غداً يطالبونني بإصلاح ما أتلف.

ـ لن يتلف شيئاً.. انصرفَ من المدرسة فذهبَ يتنزّه مع الأولاد.

ـ بعد المدرسة يعود التلميذ إلى البيت.. يكتب وظيفته أو يحفظ درسه، هكذا يفعل أولاد الناس، أولاد الجيران، الذين في رؤوسهم عقل، الله، يا الله، لماذا رزقتني بولد مجنون؟

تصيح أمي:

ـ بعيد الشرّ.. لا تقل إنه مجنون.. سيسمع الناس ويصدقون، ينادونه يا مجنون، يحسبونه مجنوناً حقاً، هل يرضيك هذا؟

ـ يرضيني، نعم يرضيني، ابنك مجنون حقاً.

ـ ابننا طائش.. مفيد طائش.. وفي مثل عمره يطيش الأولاد، وغداً يكبر ويعقل، لا تغضب، أرجوك لا تغضب، لا تقتل نفسك قهراً.

ـ هو الذي سيقتلني قهراً.

ـ لأنك تأخذه بالشدّة.. لأنك تحرمه من الكلمة الحلوة.. هذه ليست تربية، أنت لا تعرف كيف تربّيه.

ـ وكيف أربّي إخوته وأخواته!؟

ـ أصابعك ليست كلها مثل بعضها.. هذا ولد ورش، الله خلقه ورشاً، وعندما يكبر يعقل، يحطّ عقله في رأسه.. سأتكلم معه حين يعود، دعني أكلّمه بهدوء حين يعود، اتركه لي، دع تربيته لي..

ـ أنا موافق.. سأتركه لك.. سأنفض يدي منه.. ربّيه بكلماتك الحلوة.

حين كان والداي يتحاوران هكذا حول شقاوتي، كنتُ أنا أطوف في البساتين، مفتوناً بالطبيعة. المعلم شعبان لم يكن يروق له هذا، كان، لأمر ما، لا يحب الطبيعة، ولا يكترث بها، وكانت زوجته القصيرة، تبدو كرة في استدارة جسمها حتى قبل الحمل. كانت قبيحة، تحاول التشوّف على نساء الضيعة. وكانت كثيرة الإنجاب، لذلك كان شعبان، استجلاباً لبعض الهدايا والعطايا من المختار والوجهاء، يبدو مطواعاً، يخصّ أولادهم بالعناية، وبدروس خاصة، ويلازم بيت المختار، ويصادق رجال الدرك، ويتقنزع على الفلاحين كي يبدو افندياً بينهم، وكان بعض أولاده معنا في المدرسة، وكنت أتحرّش بهم وأضايقهم نكاية بوالدهم.

لكل هذه الأسباب، أو لبعضها على الأقل، ومنها كسلي، ورعونتي، كان الودّ مفقوداً بيني وبين معلمي، ويبدو أنه انتظر طويلاً لينتقم مني بضربة قاضية. قطع ذنب الحمار وفّر له هذه الفرصة. تجهّم حين دخل الصف ورآني بين التلاميذ. صرف النظر عن الدرس، جعلني موضعاً للحصّة الدراسية بكاملها، وبدأ بنوع من استجواب تعلّمه من المختار والدرك، فسألني والقضيب في يده، يضرب به اليد الأخرى، كعلامة تهديد يعرفها التلاميذ، وأفهمها أنا على الطائر.

طلب مني الوقوف فوقفت، رازني بعينين ثعلبيتين، محدّقتين، يتطاير منهما الشرر، غير أنني لم أخف، وتلبّستني لا مبالاة، فيها جانب من السخرية، فرحت أنكش أنفي، وأقف على إحدى قدمي، ثم الأخرى، مائلاً إلى هذا الجانب وذاك، مدفوعاً برغبة في التحدّي، كأنما لأنتقم لنفسي من

المختار والهيئة الاختيارية ومن غنّوم ووالدي وكلّ الذين أساؤوا إليّ.

صاح بي وهو يتابع التهديد بعصاه:
ـ أنت، يا ولد، قليل الأدب.

سألت متجاهلاً سبب غضبه:
ـ وماذا فعلت يا معلّمي؟
ـ لماذا تنكش أنفك في الصف؟
ـ كي أزيل ما فيه من أوساخ..
ـ هذا يفعلونه في البيت، عند غسل الوجه صباحاً.
ـ حسبت أن عليّ أن أفعل ذلك هنا، كما تفعل أنت.
ـ اخرس. وقح!
ـ وماذا فعلت؟
ـ قلت لك اخرس.. قف جيّداً، بصورة مستقيمة.
ـ لا أستطيع.
ـ لماذا ما شاء الله؟

ـ لأن أمي نقعت قدمي بالحليب ثلاثة أيام متتالية.
ـ أتسخر يا كلب؟
ـ أقول الحقيقة.. عالجتني أمي بالحبيب الساخن.
ـ من أين تعلّمت السيدة والدتك هذه الحكمة؟

ـ من الحكايات.. اسأل أيّ تلميذ يجبْك أن الأميرة، في الحكاية، تستحمّ بالحليب.
ـ وأنت أميرة؟
ـ أنا أمير..
ـ أنت حيوان.. هل تفهم؟ أنت حيوان!
ـ ولهذا نقعت أمي قدميّ بالحليب.. هكذا تفعل ما حمارنا أيضاً.

ضحك التلامذة، ارتفعت الضجّة في الصف، أحسّ المعلّم بالاستخذاء، ارتحت في داخلي، قرّرت أن أخوض معه معركتي الأخيرة، وساعدني على ذلك أن الجو كانه غائماً، يحلو فيه اللهو والسخرية. كنت أفرح، بعكس أهل القرية، بالجوّ الغائم، بسُحُبه الواطئة الداكنة التي تحملني على التفكير في أن أفرّ، أو أرتكب حماقة ما، أو أتشرّد وحيداً في حقول الزيتون، أو ألجأ إلى البيت فأنام بكل بساطة، فإذا هطل المطر، وفاحت من التربة تلك الرائحة الحبيبة، رائحة الأرض، التي أحسّها إحساساً حلواً، أخرج فأقف في الباب، وأتابع حبّات المطر، الممزوجة بالبرد أحياناً، راغباً في أن يستمرّ المطر طويلاً ولعدّة أيام.

أخرجني المعلّم من الصف. كان يضمر شرّاً، وكنت مثله، أضمر شراً مماثلاً. لم أكن مبالياً، برغم أن السكّين ليست معي. كان شيطان يركبني، فأشعر بقوة مضاعفة، وجرأة مضاعفة، ولا أشكّ أن في استطاعتي قهر المعلم، في أي شجار أخوضه معه، فالعقوبة التي نلتها في بيت المختار، ملأتني نقمة، وبخلاف ما توقّع الجميع، لم تحملني على الندم، فقد كنت مقتنعاً، بسبب لعين لا أعرف ما هو، أن ذَنَب الحمار ذاك كان يجب أن يقطع.

وقفت في أوّل الصف، في الجهة المقابلة للباب، مسترخياً، مائلاً إلى جنب واحد، نظري يشبّع بالكره، أعصابي مستنفرة، دون أن يظهر علي ذلك، بفعل تلك العادة المستحكمة فيّ، عادة أن أبلغ في داخلي، أقصى التوتر، وأظلّ من الخارج، هادئاً، ساخراً، كأنما لا شيء في الدنيا بقادر أن يخيفني.

لاحظ المعلم شعبان ذلك، لاحظه دون شك، وربما رغب، في أعماقه، بصرف النظر عن معاقبتي ثانية، لكنه كان قد استعدّ، وبَانَ استعدادُه للتلاميذ، وكان، خلال غيابي، قد أبلغهم أنه سينزل بي عقوبة أين منها عقوبة المختار، فأيقن الأولاد أنه فاعل بي ما لا يُفعل، وأنه سيضربني حتى أموت، أو أزحف وأقبّل قدميه طالباً الرحمة، مبدياً الندم والتوبة. وها هي لحظة التنفيذ قد حانت، واستعدّ كلّ من في القاعة، لرؤية مشهد مثير، كانوا يتمنّونه، لا كرهاً ولا بغضاً، بل حباً بالإثارة، وباستعادة موضوع ذنب الحمار، الذي صار قضيّة الضّيْعة كلّها.

ذهب المعلم وجاء. كرّر ذهابه ومجيئه، شاء أن يخيفني، أن يدخل الرعب إلى قلبي، قبل أن ينقضّ عليّ بعصاه. وحين لم يجد لنظراته الملأى بشهوة ترويضي، أيَّ أثر عليّ، ولم تنفع حركاته المشحونة بالبغض في حملي على الخروج من لا مبالاتي، استعاض عن الضرب مباشرة بحوار شاءه مهيناً، حتى يستدرجني إلى الخجل الذي لم أكن أتعامل معه، فأنا لست وقحاً، لكن الخجل لا يعرف سبيله إلى نفسي، وبقدر الاستثارة. كانت وقاحتي تزداد، وتعبّر عن نفسها بسخرية تبدو في قسمات وجهي(*).

(*) جزء من الفصل الأول من رواية «نهاية رجل شجاع» التي تصدر قريباً عن دار الآداب.